

المُعْتَرِك

باعية قصصية
بقلم: نواف البرهجماء

مقدمة :

ثم قال : في بيروت وتشعر بالوحدة؟! انك لغريب الاطوار حقا !
كم من مرة جئت الى بيروت ولم تر « السترايد » ، ولا مشيت
فدماك على رصيف « الحمراء » ، لم تسمع ، مجرد سماع ، بشوارع
اسمه « نينيقيا » .. الزيتون ، غلب الليل . الفوضى المرحلة للجوج .
الاضطراب الذي تحاول الكؤوس اخفائه .

رنات المرح المسكرة والاصوات المطفأة بالظلال الشاحبة المبتوثة
في الزوايا والسقوف .

كم هي الساعة الآن . لم تتجاوز الخامسة مساء . ان فرصة لقاء
صلاح في « الروشة » الآن كبيرة . فنجان قهوة بعد الفيلولة . كم
كانت تحلو مع البدلة الموهة المعفرة بتراب الشمال ، المطيبة بعبير
الكرمل ! أيام كانت حلوة . حركة ، فيها حركة . تسري كههمة بين
جمهور انتظر طويلا حتى ملّ الانتظار . الململة تتحول الى ضجة .
الى فعل .

« نحن الآن قرب الساحل السوري ، أسمعني ؟ سنتجه الآن
شرفا .. صوب بانياس . هل أنتم مستعدون ؟ ارتسمت أمامه ، في
الفضاء الأزرق الصافي ، صورة لريتنا وهي تتناول لتصل الى رأسه ،
لتلمس شفتاها شفتيه ، ثم يقبسان في قبلة . يغمض عينيه لذة .
يفتحهما . يحرق بعيني ريتنا .. مثل السماء ، والبحر الأزرق الصافي
تحتة . كان صوت أجش يأتيه ليس يدري الآن من أين . نحن على
أهبة الاستعداد . سننطلق الى الشمال ، تل الفخار ، والمناطق الأخرى .
اتجهوا فورا الى الساحل . تحاشوا الصدام بالطائرات السورية ،
مفهوم . غابت بسمة ريتنا ليتوضح أزيز الطائرة » .

– ما هو تعليقك ، يا أبا النور ، على عملية ميونيخ ؟

– لننا الميدالية الذهبية .

– والنتائج ؟

– حركة .

– أنت رغم كل شيء متفائل يا أبا النور . لم أذن لا تعود الى
الساحة ؟ لم أرك منذ آمد بالبزة الموهة والكلاشن ؟

يعتصمني ألم . لماذا لا تطرح السؤال على نفسك يا صلاح ؟

تكن أنت الآخر ترتدي الموه وتمشق الكلاشن ؟

الشمس تموت في المتوسط ، أو هي تكاد ، تخلف آلاف الشموس
الصفيرة المتجاورة بتناسق تتراقص على الموج في العمق . تلتخ السماء
المنحنية هناك . أرى الدم ، البرتقال الموشى بالخضر ، الوهج الخاطف

رطوبة مفعمة بحرارة ممزوجة بملوحة البحر وروائح الخاصة
« الحمراء » . شوارع محمل بالصخب تكنه فارغ الا من زحام الاجسام
والاقدام . « فينيسيا » ينتظرن بحرارتته المخنوقة في الاقبية ذات
الضوء الهاديء والانفاس المتباطئة الحرى .

السيارات هنا جنون طائش محير . هذه السرعة كلها دون ان
تسمع ، في أية لحظة ، اصوات تحطم ، زعيق صدام عربتين ، صراخ
الناس . نون ان ترى الاقدام المتراخمة تطعم زفت الشوارع والعيون
تسبقها بطل منها حب الاستطلاع واندهشة تعبيراً عن خوف موقوت
قد يتفجر في لحظة ما . ربما لا أجد الآن ، أو هذه الليلة ، اي صدام
وان كان الامر لا يعني الكثير .

« الاوامر صريحة . أحرقوا أي شيء . ما يختص بالمخربين ،
بذويهم ، بأوكار التفريخ . بصورة خاصة أوكار التفريخ . دمروا
ما تقع عليه أعينكم . وهزّ الكابتن « تسفي » رأسه . كانت سرعة
الطائرة الآن كافية ، والارتفاع أصبح ضروريا » .

ثمة أنثة في معدتي . أشعر بصداها في ظهري ، يسبح من الرقبة ،
كالشبان الساخن ، حتى نهاية زردات الظهر .. عند العجز ، انه عجوز
متصايبة تحلم بفارس يختطفها الى جزيرة نائية .. خضرة وظلال ..
شهقة الوصل فيها ألم يتزاوج وفرحة منتظرة ، غامضة هي كسحر
السحاب ، كالتطم الراقص جدلا ، يتوقع صيدا ثمينا .

« ... لا تنزل في الماء يا سامي .

ركض سامي الصغير على الرمال .. لحسن ماء البحر قديميه
العاريتين ، غل الرمل سفلى قديميه . توقف ونظر الى أمه ، ثم رفس
كومة رمل صغيرة أمامه .

– سابني بيتنا من الرمال يا أمي .

اقتنعت وعادت الى المنزل – القرفة . مكنة متآكلة الاسنان
بيدها . فوق البحر ، بعيدا ، وهي لا تبصر ذلك ، كانت الطائرات .
كان « تسفي » وكانت الاوامر معه صريحة ... » .

سمكة سمينة تهديء الجوع وتمنح فرصة لاسترداد العافية .
هنا ، هنا في هذا الرأس . هه ! كنا نقرأ عن الفوسفور .. وتقديء
خلابا المخ . احسّ بوحدة موحشة غريبة . لو سمعني صلاح لهز رأسه

هاتفا يقول : وصلنا الهدف . ثم انفصلت طائرة عن السرب » .
ضحكت . رصّ الملح في الجرح . رنة صوضاء . صولجان الملك
الرعيدي المخصي يهتز . قتلته فوراً . اغتلت فيه شجرة زيزفون
وارفة .

– لعنك الإله .

– ان دواءك معروف . انه هنا ، في بيروت .

واختالت أمامي صبية مفناج . بيروت الشرق غريبة . كنت أسمع
دائماً عن بيروت الحسنات والشوارع التحلى المكتظة .. بيوت الغراء ،
الجنس الكوروث حرمانه أبا عن جد . كافتور يجلس ، بين السندسة
الصفار . الحاشية واقفة . أبو الطيب يقول القصيد .. ذلك الكبرياء
الجريح المهزوم .

ويلتي ! لم أهت هنا الا خلف « برج اليراجنة » بحثاً عن وكر
عن بندقية . أردني البدلة الموهمة . يخامرني شعور غامض عذّب .
يسامرني فرحي بلقاء الكروم والجبال في الجنوب ، وروائح «المرمية»
و « الصبار » و « الصعتر » تعبق في السماء ، وسط الفبار الذي
انارته سنابك خيل صلاح الدين . ثم ، اخترق كالمسهم حجاب الموت
الذي يسور حبيبتني ويحبسها . أقفز من فوق السور ، اشعل فتيل
النهار في سوبداء الليل . اقبال السجان بالنار . يا الهي ! ذلك
الخفقان الذي يغور في عروقي لم تنبض فيها منذ أمد طويل دمساء
مجففة . أين الجواد يصلح في لجة العتمة والصمت ؟ الليل هباب
حلو ، ام رؤوم يحوطني بذراعيه ، يحميني . البندقية تدفء ضلوعي
أيام الصقيع وتنسيني لهب حزيران اللافح . آه ! اختضنها وأخضعها ،
أقبلها ، أغيب معها .. نذوب فنصبح واحداً لا اثنين . إذ ذاك ينفلت
العقد ، تطير الشرارات ، حدوات الخيل المطهمة .. يموت الاحساس
المتورم المتنامي ، يموت ، أو هو يضم الى حين .

« الاذاعة اللبنانية في بيروت : صرح متحدث باسم وزارة الدفاع
بما يلي : في حوالي الساعة الخامسة والدقيقة العشرين من بعد ظهر
اليوم قامت طائرات العدو الاسرائيلي بغارات واسعة وحشية شملت
مناطق ... الخ » .

– من أنت ؟

– فلسطيني .

– وتجلس هنا ، في الروشة ؟ في « الدولتشي فينا » بالذات ؟
– لماذا لا ؟

– اذهب الى نهر البارد ، الى العرقوب ، الى اللاذقية ، الرفيد ،
الزيربب ... الى الفور ... ميونيخ !

– لا تعذبني يا صلاح .

– انني أسقط عذابني عن نفسي . أحاول التخفيف من وطأتي عليّ
فأوزعه .

« كان البيت الذي بنيناه عاليًا ، يلتمع بوهن والشمس تفرّب .
كوّم سامي ، بادئ الامر ، رملاً كثيراً ، ثم التفت الى كرمل :

– هذا هو الجبل .

انحنّت ، تحسست الرمل الدافئ . اللهسة فيها حنان . ثم
بسمت له وهو يرسم البيت :

– في قمة الجبل بيتنا .. عند البحر .

– أأساعدك ؟

– هيا .

طفقت تساعده . حفنة من رمل . أخذها منها ، وضعها مع حفنة
أخرى على الكومة الكبيرة . أصابعه الدقيقة تعمل ثقبا في جدار رمل .

– ما هذا ؟

– الباب .

كانت تنظر الى السماء . اجتاحت عيناها في لحظة سطح البحر ،

الدائم . كانت النسمة مشبعة بالرطوبة وروائح التمشك . « الدولتشي
فيتا » يعج بالشباب ، الرفاق ، اناس . ثمة وجوه أعرفها ، أضحت
مالوفة هنا كأنما هي لا عمل لديها الا الجلوس هنا ، الموت مع الشمس
الراحلة خلف البحر المتوسط . تأملات صامتة وثرثرات باهتة آليّة
مع القهوة . البحر ، الشمس ، السيارات ، الناس . الشباب
الرائحون والغادون . اتسائرون الهويئا والمهمـوزون بعضا الوعد
يتسابق مع ضربات القلوب الضارية . هذا هو المسكان : جلوس ممض
أحمق ، مسير صامت ظالم ، جري لا غاية له ، وغاية محشوة بأي
شيء ، وفارغة من أي شيء .

« .. سامي ، لقد بنيت بيتا جميلا .

ومضت عيناها . ركض صوب كرمل . كانت فتاة صغيرة ، في مثل
سنه ، رثة الثياب . لكن وميض عينيها كالبرق . نظر الى البيت .
قلب شفته السفلى :

– البيت هذا صغير ، مثل بيتنا الذي هنا . يقول أبي ان بيتنا
الذي في البلاد أكبر بكثير . تعاني هنا . سألني بيتنا كبيراً .. كبيراً .
أشار الى الناحية الجنوبية . دنت كرمل من الماء وهي تعلق عينيها
بعينيها . كان الموج زاحرا لا ينقطع . أحببت لثمة الماء لاصابع قدميها .
مشت خطوتين الى الامام . من بعيد كانت بقعة سوداء تتوسط الشمس
.. القرص الكبير المتوهج على بحر أزرق . تميل الشمس لتفطس في
حافة البحر البعيد غربا .

– لا تقتربي من الماء . الموج عال هذا اليوم .

ضحكت ثم انتزعت قدميها من الرمال . انحنيا . ظلاهما امتدا
في اتجاه الشرق » .

– هل سمعت يا أبا النور ؟

– قل يا صلاح .

لا . أنا منذ الساعة الثالثة أتجول في شوارع بيروت . لكنني
أود أن أودعها . احساس عميق بفرغ يتناثري . أتري ؟ لقد نسيت
لثلاثة أعوام ، بل ربما لثلاثين عاما انني رجل ، ان لي رغباني الخاصة
التي تلج عليّ ، نهدهدني في أول الليل وآخره . نسيت انني رجل
يا صلاح . أتعرف ما معنى هذا ؟ .. ان ينسى الرجل انه رجل ؟

لم يتسّم صلاح حين تسأل :

– هل يعني انه تحول الى أنثى ؟

امتعضت ، لست أدري لماذا ؟ شيء ما عضني من مكان مجهول
وكانه كلب مسعور نتش طرف ثوب رجل متعرج .

– تمزج الجبد بالعب ، بالهزل دوما يا مقصوف العمر . ألا تتركه
ان ذلك يعني انني سأتحول الى « روبوت » .. انسان آلي لا يعرف
شيئا . مجموعة من الاسلاك والبراعي والقطع المعدنية والالكترون .

انه دماغ متفوق كما تعلم ، لكنه لا شيء .. لا احساس . الآن
فقط يتعفن في أحشائي شيء . في هذا النهار أرتعش بادئ ذي بدء .
ولم أتم لاحساس مقيت بعزلة خامرني .. عزلة لا قرارة لها . أشعرني
كالارض الخراب المهجورة .. بباب . أين امتداد هذا القحط ؟

هل أتحدث الى نفسي ؟ صلاح قطعة مني ، قطعة بعيدة ، لكنها
ملتصقة بي مهما نات المسافات ، ومهما طال الفراغ .

– سد حنكك فهذا أفضل لك يا أبا النور . أنت مشكلتك تكمن
في كلمة واحدة .. امرأة .

« الطائرات سوداء سريعة . فوق الساحل ، في السماء نقاط
تضيئها الشمس لكنها داكنة . الازير عال وسريع يخلفها . وهي تحلق
مسرعة قلبه . أشعة الشمس الشاحبة تنزلق عن الاجنحة المثلثة .
المثلثان المتداخلان يرقشان النفاثات . الجسد كالمسكة الزئبقية لكنه
جسد مثل أسود . العيون مملوءة بحذر وخوف وأشياء أخرى تنتقل
من الفراغ الى زرقة البحر الصاخبة . كانت صورة ريتا تعد بأسرع
من ظل الطائرات السابح على الموجات .. أمام « تسفي » . سميع

ثم تجولنا خلفها ، بين البيوت .

– اعني الصوت .

آنذاك فقط رفع عينيه . كانت الطائرة سوداء مثل الليل ..

قريبة من سطح الماء .. مثل رخ أدهم .

– ياہ ! ما أكبر هذه الطائرة يا كرم !

– لم أر لها مثيلا من قبل .

عنى الشمس نام على حدّ البحر « .

الزم الصمت يا أبا النور ، فللمرة الاولى في عمرك تشعر انك

ارتكبت حماقات . لقد استحوذت عليك مناظر معينة . أثارها شيء

حيّ دائم هو بين ظهراينك . قريب منك ، بعيد عنك . أنا رجل ،

نسيت في الغمرة ، انني أعشق المرأة . أحلم بنهد ، وبهرة ناعمة ،

أحن الى شفتين استلقتي بينهما وأغفو ، بعد أن أتفلس أثر عشاء طويل .

أتوق الى فخذين أصنع منهما وسادة وفراشا طريا وزورفا أعبر به

البحر . أتوسد الصدر ، ثم أمتطي الموج الصاخب . رحمت يا منبني !

الليل والخيل . لمْ هذه الإعاصير ؟ قلة الشغل تعلم التنطير . هكذا

اعتاد أبي أن يردد . الصيف الملعون كسل ، الحرارة تنفت السم في

العظام ، توزع في الرؤوس الرغبات المكبوتة . هكذا تحيي الرميم .

– أنا منفسم .

– وأنا أموت من التمزق .

– اسمعت ؟

– صلاح ! اسمع هاتفا في اعماقي ، هاتفا غريفا . انه يقوى كلما

شاهدت بنظالا ضيقا يشد ردفي فتاة . انظر . من هذه الناحية

يا مغفل . أكاد أراها عارية .

ضحك صلاح للمرة الاولى بطلافة . كانت أذناي مشدودتين اليه :

– الفتاة الرجعية هنا ، فقط ، هي التي ترتدي تحت البنطال

سروالا داخليا .

– يا للهول !

« العيان الزرقاوان لريتا ستكبران ، كالبحر هذا الذي أظير

فوقه الآن » .. هكذا قال تسفي لنفسه وهو يعود . كان يرتفع ، ثم

تجول ببصره في السماء الواسعة . الزملاء خلفه . عيون ريتا في كل

مكان الآن . عيون ترمقه باعجاب . وتنبطح أمامه صورة لما خلفه الآن ..

الدمار .. والخسائر . سيقدم تقريره : اصابات مباشرة . المباشرة

عملت عملها . ردود فعل العدو اذاعية . الليلة هذه سيرقص مع ريتا

في النادي . سيرقصان .

ارتعشت الطائرة من تحتها . ضغطت أصابعه على المقابض ، دوي

الطائرة ازداد حدة .. كانت تواصل ارتفاعها فوق السحاب . الشمس

ذبحت في البحر . لم يبق سوى عيني ريتا « .

– ان الصوت فيّ يعربرد . يتحول الى صراخ .. الى عويل أزلي

رهيب .

الآنثة انحدرت من صدري الى المعدة .. الى السرة ، تكورت ، ثم

تصلبت هناك . ضقت لردعا بالجنود المتعددة التي صنعتها . نبتت

الجنود أذرع كثيرة بدأت تمتد يمينا ويسارا . تحولت الى ألم ضاغط

استولى على رأسي مباشرة :

– أريد حبتي أسيرين .

قهقه صلاح بحرية تامة :

– منذ متى لم تذق طعم الانثى ؟

– لست أذكر .

– كيف يا أبا النور ؟

– أجل ! كيف يا صلاح ؟ أمر عجيب ! أبحث في رأسي . منذ

خلقت وأنا أحنّ الى امرأة . الى ساعة استقرار مع انثى .

– ستكون الليلة عروسا .

برق في ذهني خاطر . الألم يزول ، والورم الخبيث يتلاشى في

لحظات ملؤها الأمل . الضوء الأحمر الباهر يسطع . الظلال البنفسجية

تترافص ، الجسدان العاريان يلتحمان . أشهوة تنفجر . تنفجر

« الرمانة » اليدوية في قلب عربة مكتظة بالجنود ذوي الخوذات المثقبة .

جفّ ريفي . حلمت بهطر غزير يطفئ الجندوة المتأججة نيرانها ..

المتقدة المقلعة في جسدي . نظرت الى صلاح ، بفتة . يتحاشى التقاء

عيننا .. يتفادى صدام النظرات . ثم وهو يفرك راحتيه ردد :

– ستكون الليلة عروسا .

« المهرة » تنتظر الخيatal . الرجال في الساحسة يدبكون .

« أبو اللمع » يشبب في الوسط ، الاغنية تنسساب من بين شفطي

أبي عبد الله كميها جدول « آتئين » . و « مريت عن دارهم بعد العشا

بنتفة . لقيتهم نايهين وسراجهم مطفي » . يلوح عيسى بمندبل أحمر

معمود الطرف ، يدور الراقصون ، في عيونهم كالنغم تدور صور

الصبايا ، وأذانهن تملؤها الزغاريد . كل منهم يشعر ان عيونها ،

المترصدة له في كل مكان ، مسمرة به . ان رأسها يرتفع فخرا . انها

تتبه خيلاء من أجله ، نرمق زميلاتها بنظرة معنى ، تعبر عن ذلك بزغرودة

طويلة ، يجب ان تكون طويلة ، متميزة ، ليسمها هو . يردد الراقصون

« المهرة » في انتظار العروس . النسوة زينتها بفلائد الذهب ، البسها

ثوبا من حرير صيني أبيض كالفرح . الزغاريد تمتاز بفرحة العيون .

روائح انخفاف المشوبة ، والمحمر بزيت الزيتون والرز باللين الوفير .

فجأة ، أبو النور ، يتوقف كل شيء . لا تشاهد ذلك الا في دور

السينما وفي مخيلتك فحسب . تتجمد الكلمات مثل الرصاص حين

يبرد . حنجرة أبي عبد الله تبح أولا ، ثم تصمت . تتسمر الشمابة

كالشمع وأصابع أبي اللمع بصيبيها الشلل . « المهرة » تشرّب بعنقها

العاجي ، ثم تحني رأسها وكأنه فصل عن جسدها الطويل ، المتناسق .

الثوب الابيض يلطخه شيء ، هو كالم ، أو القطران . الأرجل تتعلق

ما بين الأرض والسماء . ينفجر قريبا منهم شيء مرة اخرى .. يزرع

الدهشة في العيون . ينفجر وينفت رائحة غريبة تأتي على عطور العرس

كلها ، وروائح الطعام ، وزيت الزيتون والمحمر . حتى الدمعة

تحتجرت .

– لنشرب يا أبا النور !

البحر أصبح داكنا ، والهجرة من وادي النيل الى الراقصين

ينبغي ان تكون عبر الصحراء ، والى البصرة عبر بحيرات وشطوط

وأهوار .. وموت . الضياء يتراقص من حولي ، يفرخ ضياء آخر ..

فثالثا . الأتوان الساطعة حمراء .. زرقاء صفراء . ثمة فحيح افعى

سامية تنسحب على رمل ساخن بين قدمي . يتحول الفحيح ، كالظل ،

الى مواء مكبوت . فحيح هاديء في البدء ، يتعالى كالنسيج . أحمل

كتابي وأنا أتجه مرة الى « الربع الخالي » فتصطادني الرمال المتحركة ،

أحمل كتابي مرة اخرى وأعود ، أحمل كتابي من أجل الحسناء بيميني

الى الوالي في الجنوب . سيقطع رأسي . أعلم ذلك ، لكنني وعدت :

– سأذهب .

وأنا عربي . جفاف الصحراء مزعج ، ومواء القطة شباطي .

أحسبني هرة هزيلة تننحى جانبا وتتبول ، ثم تتوقف تحت نافذة ينزل

ماء المطر من مزربها الصديء وأحس باليباس والقحط . صلاح

ينظر الاجابة ، انتشلني سعاله المباغت من الصحراء . أكرع الكؤوس

دون أن أدري .

– أجل يا صلاح . الليلة خمر .

– يا مقصوف العمر ، انت في الجاهلية !

– ليت الامر كان كذلك !

– المهم الى أين نذهب ؟

– ليس هكذا هو المهم يا صلاح . المهم ان نشرب ، في جو .

نغير الجو .

يتأمل .. يصفي الى الصوت المنساب كالغدِير ، لكنه كان يشرب بشراهة .
انهى الكاس وطلب مرة أخرى . انتبه اليّ وهو يجتاح النادي بعينيه .

- اشرب يا أخي . ودخن . نحن هنا لسنا في جنازة .
جنازة أ رسمت بسمة خلتها باهتة . السواد في كل مكان .
احتسيت لاداري صاحبي .. القهوة انسادة . الويسكي في حلقي كالقهوة هذه . لم أشرب منذ زمن بعيد . استدارة ردفى السمراء صفعة تمل في أحشائي ، انها ملهبة . عيناها ثانية ، هونا ما بعد الموت . تقدمت نحونا . هذه المرة تجرات أكثر . لفحني العطر . وصلت . عيناها ملتصقتان بها . امتدت يدها الى شعري ، غمرني موج الطيب . النيران اشتعلت في دمي . سمعت ضحكة تنفلت من بين شفتي صلاح . لم تعره اهتمامها ، قالت هامسة :

- أنت أسمر مثلي !

وضحك صلاح :

- وأنفه كبير كأنفك ! وعيناها ليل .

لم أنبس . لساني أنفقد .. عقده الحيرة في البدء .

- هل أجالسك ؟

وضحك صلاح مقهقها هذه المرة :

- لأنه يشبه كل شيء فيك ؟

أعلم انهن ، هنا ، مخادعات . هكذا قيل لي . هكذا يقولون .
يطلبن منك دون ان يمنحنك شيئا . وان منحن فلاستمرار المزيد .

ارتفع صوت صلاح ، بعد أن بتر قهقهته :

- ليس الآن .. ليس الآن . ألا ترينه حزينا ؟

أنا والحزن توأمان منذ أن ولدت . حدثت هي صلاحا بنظرة سريعة ثم رفعت يدها عن رأسي . أسقطتها على كتفي . أحسست بها ثقيلة . على هذه الكتف كم نامت البندقية !

- ألا تود أن أسري عنه ؟

- وما هو عملي إذن ؟

خفّ الثقل عن كاهلي . تكثفت رائحة العطر ، مثل ضباب في برية مسكونة . كانت حضورا يفرض نفسه بفضب . وجهها يدنو من وجهي . أنفاس دفيئة حرى . شعرها الليلي المنسرح على صفحتي خديها ، السائب مثل الريح في السهل المنفتح ، يلامس وجهي ، ثم لسعتني نار ملتهبة ، جمره لثمت خدي الايسر .
- سأعود اليك ونشرب .

ارتحل كل شيء عني .. حتى صلاح . خيل اليّ لوهله انه لم يكن معي . احساس بحزن اغرقني في القعر . لم احسن معه الرؤية او التنفس . بصورة آلية تحركت يدي الى مسكان القبلة . تحولت عيناها ، دون هدف ، الى أجزاء المكان . صنعت هدفا . بحثت عن عيني سوداوين واسعتين ، ليل صحارى ، شفيتين مكننزين . بحثت عن صوت ناعم حنون . أهو ذاته الذي اعتاد مناداتي من قلب عمق الليل .. دون أن أراه . كم مرة سمعته ؟ كانت « صدف » ذات ليلة فوقنا منثورة على جبلها . نراها مثقلة بالليل . والضيء فيها موقد ناره خامدة . قال « عمار » :

- ماذا أو نصل هناك ؟

كنا نود أن نكمن للناقلة القادمة بعد نصف ساعة . هكذا قال لنا الرصد بعد أن راقب القافلة أكثر من اسبوع . في الثالثة صباحا تعود وجندها تثقل جفون أعينهم . نحن نكمن لها في طريق عودتها . الظلام في كل مكان ، لا يسلينا غير منظر « صدف » . كأنني أغمضت عيني ، لاسمع ذلك الصوت السحيق ، الواهي :

- يا أبا النور ، أنا أنتظرلك . أتذكرني؟! حبيبتك التي ولدت يوم ولدت أنت ! ألا تشعر انك ناقص .. ان تتمنك مجهولة المكان ؟

تعربد في عروقي أشياء غامضة . رغبة حبيسة انطلقت . الحروب من أجلها اندلعت . ألم تندلع لأجلها « البسوس » ؟
- ليس كذلك يا صلاح !

فوجيء صلاح ، لكن سار على الخط حتى النهاية .

- ربما نعم .

- نعم لماذا ؟

- للذي في رأسك .

آه ! تتضح معالم الصورة . تكوين بدائي أصيل . العيون السوداء الكحيلة ، الوسيعة . الشفاه المكتنزة الناضرة . الصدور الناهدة شبه العارية . الأرداف الهزاهزة . المارة في كل اتجاه . ترى ، أيدرك كل منهم الى أين يذهب ؟ وهل يحمل كل منهم رسالة الى الوالي ، الامير ، السلطان ، الشيخ ، الشرطي ، القواد !! والجلاد ! بقطع رأسه وتعليقه على سور المدينة ؟ ومع ذلك فهو يسير ؟ أحس بالمهانة ؟ ينبغي أن أنقب جدار الزمن المرعب العتيد .

- صلاح . اختر مكانا يحلو فيه المرح .. مكانا رطباً .

ضحك صلاح وهو يتفقد النمل ثمن القهوة .

- دع هذا الامر لي . أنا الليلة شيطانك . لقد استفيننا عن الثوب الملائكي منذ زمن . سنسير الآن أنا وأنت . يخامرني شعور انك دكتور فاوست !

- أنت مغفل . اتفق الليلة مع « امستو فوليس » من أجل امرأة ، لا من أجل الجنة وجهنم ! يا عالم أحن الى امرأة .

هل فقدت صوابي ؟ افتراضي ذهول مفاجيء . كان صلاح يعلن احتجاجه على صراخي متهما اباي بنفاد الصبر . ثم خدمت نيران في قلبي ! أغفت لحظة خلقتها عاما كاملا . أحببت المسير الصامت . تحسست يدي الرسالة . ترى هل كتب الخليفة الحكم بمداد من دم ؟ المهم ! أعرف الآن الى أين أذهب وماذا سيكون .

الحركة ((١)) :

- أجنبي ، أم فيروز ؟

وغمرتني روائح نفاذة ذكية . لم أجب . تأملت قامتها المديدة . الاضواء الحمراء تصبغ وجنتيها السمراوين ، يتحول رأسا خديها الى نقطتي بنفسج مضيئين . الصدر الناهد رخص صلب في آن ، يدنو عينيّ خلال فتحة رقبة الثوب الطويلة . البطن ضامر مكشوف حتى السرة . حاملتاها الطويلتان ممتلئتان وشحهما احمرار النور ، وأكثرت ضربات الريشة من البنفسج عليهما . شعاع متساقط من أماكن شتى ، مفروسة في جوانب السقف . العيان مرة أخرى . عيان واسعتان سوداوان كالأغراء .

- فيروز يا أبا النور ؟

غرّني الصوت . حلتقت . قلت وأنا أحن الى اصوت العذب :

- وهل ثمة من صوت يضاهي المخمل الفيروزي ؟

ضحكت وتناولت من صلاح النقود . التفتت اليّ ، برمت قامتها المديدة والتوت لتسير صوب الآلة . ما زلنا في الكاس الاولى . حرقة ومرارة . هكذا هي الكاس الاولى معي : حرارة . أرجو ان ، ملوحة ، مرارة ، احتراق مفاجيء ، أحب النظر من خلفها الى الوجوه . كان ثمة ضجة في النادي الليلي هذا قبل لحظات . خرج الجمع الفوغائي . تفرستني فتاة « البار » . أوامات برأسها الى السمراء . دنت مناس . كنت أحاول تأملها من خلال زجاج الكاس . شيئا يتضحمان ان نظرت من خلف زجاج الكاس الملائى : الشفاه والاعين . الشفاه الطلية بالاحمر ، الملتزمة مثل عيون القطط البرية . والعيون انجابوية الفميقة . أجواف معتمة ، كهوف ليلية . كم أخشى الاعين هذه ! أبعد عن عيني الزجاج ثم أصافح وجه صلاح . هو الآخر لطحته الظلال الملونة . كان صامتا

ها أنذا .. تتمكن . دوّم في أعماقي شيء يفظ ، رفعت رأسي . بدأت أبحث . يومها تصور ((عمار)) انني قد أصبت بالجنون . لكن الصوت ما كان ليفارقني طوال الرحلات الصديدة تلك . كم أحنّ اليه الآن !

– اسمع يا أبا النور . لم نأت الى هذا المكان لنصمت . مع الكأس وصوت فيروز يحلو السمير ، ويطلو الحديث . نحن صديقان منذ سنوات . أعلم ان في جوفك كلاما كثيرا . قلبه . هنا يتبدد مع صوت فيروز المتلاشي في الظلمة الطهمة بأنوار الرمان .
– منذ متى وأنت تشرب يا صلاح ؟
– يا أخي هيا !

((سني عن سني)) . أنا ظمان . أرشف من الكأس في عجمالة . تدور الأشياء . أشرب . أتحدث في همدوء . أتحدث . والدوران يستمر . ليست الكرة الكبيرة هذه تدور هي الأخرى ؟ هل هي ثملة ؟ ضحكك للخاطرة . الكرة الأرضية رجل عملاق ثمل ، لم يصح منذ أن وجد . ضحكك لخاطرة أخرى .. مرتين . عندما تجولت في ذهني ، وعندما خرجت من فهي ، وانحلت عقدة اللسان مرة أخرى .. سبحة قطع خيطها .

– لم أعد ألوم الذين يتحدثون عن بيروت بالسوء . أنظر . الى هذا الجو الاحمر الرهق والظلال المبوثة في انتظام مرعب . هو ذاته انتظام العرب في عصرنا هذا . يصيب الشلل أشياء كثيرة في الانسان . حتى الدماغ تنفلت أزراره . لا يستطيع أي منا السيطرة على تلك الخلايا الرهيبة .. خلايا الاعصاب . خذ هذه مثلا .. هذه السمراء . أكاد أراها عارية . في ثوب حواء قبل ان تضع ورق التوت . انها تسبب حريقا هائلا في دمي يلتهم الركام الزمن المراد في الداخل . سحبت لفاقة من العلبة . صلاح يتألمني بجوارحه . أعلم انه يتوق الى هذا الحديث . أشعل أي اللفاقة . أخذت نفسا . صوت فيروز ، ذوبان من ألوان مختلفة ، هي الزهر والبنفسج والياسمينية ، ويفوح العطر . عدت ثانية الى الداخل .

– هنا ينفصل أحدنا عن كل شيء . عالم خاص ، له قوانينه وانظمنه وأخلاقه ، ومثله . سؤال : هل أستطيع مواجهة هذه السمراء هنا ؟ جواب : لا . لكنك يمكن ان تتفق معها . سؤال : هل أستطيع احضار مشروب من الخارج ؟ جواب : قطعاً لا . هل احضر صديقتي ؟ جواب : نعم ولا في الوقت ذاته . هل أصرخ ، أبكي ، أغني ، أشرب ، أرفض ؟ .. جواب : نعم بالتأكيد . عالم عجيب هذا يا صلاح . لا يعمل الا في الليل . وقت العمل السري ضد السلطة العاتية . وفي الليل بدل أن يموت الانسان على سرير يصر تحته ويتأوه يفضل ان يجلس هنا ، يلوذ نفسه ، تنساه السلطة ، يمضغ وجوده ليحيا في هذا العالم مثل أبة بعوضة ! لنخرج من هنا . ماذا سنرى ؟ القمامة تملأ الشوارع . روائح تفوح منها الامراض والاوبئة . لماذا ؟ عمال البلدية مضربون . ماذا يريدون ؟ جواب : تحسين أوضاعهم المعاشية . لو ذهبنا ، جينا علب الليل في هذا البلد ، هل سنشعر على عامل واحد من هؤلاء المضربين ؟ جواب قاطع : لا . لماذا ؟ شيء مضحك . اشرب أفضل لك . أنت تمس السلطة الآن . في صحة هذه الجلسة الفريدة . لقد جئت بي الى هذا المكان لتحشرنني ، لكي تزيد من يقظة المارد الكامن في عروقي . ها هو ذا يفعل . انني أتحرق الى حزن امرأة .

وملات صورة والدتي عليّ المكان . العيون الحزينة دوما .
– لو كانت أمي هنا لدفنت رأسي في حضنها ولخصبت بدمعي الحثيثي . أشوق حفا الى امرأة . لكن السى أنى ، لا الى أمي . قلت لك هذا . أعلم !!
ان الصداق يزداد هنا ، في هذا الرأس الغاضب . ويسمي بيروت كله غير كاف . وان هو الا خدر موقوف لذيد .. أسمع عقارب .

لماذا ترفض أنت أن تجالسني السمراء ؟ لا .. لا تجب . أنا أعلم ماذا ستقول . انها تريد النقود فقط . ستقبلني وتذهب . أعرف ذلك . وهل في القبله ما يعيب ؟ وهي بالفعل قبلتني دون مقابيل ، اليس كذلك ؟ ستقول انها قبلتك على أمل ان تطلب مجالستها بعد ان يعمل الويسكي عمله . حسنا . هي حرة التصرف ، والطعم أحيانا لذيد . ها أنذا أقول هذا الكلام سليم ، من يرفض مفاخرة هذه الحسنة ؟ أي مقفل يرفض النعمة السمراء المتأججة الساحرة هذه ؟ انها نعمة . لحن ، يفوق ما عمله الموسيقار العظيم بيتوهوفن . نعمة ، سمفونية أتحدى تشايكوفسكي أن يؤلفها . حتى صوت فيروز يتضائل امام رغبتك في امتلاك هذا اللحن .. في التحليق معه ، في نسيان وقع خطوات الايام المرهقة السريعة . ههنا تكمن نعمة الزواج . بالنسبة للرجل وللمرأة معا . الاولاد .. انعام ، سمفونيات خالدة . أعلم انك ستقول اني بعد ان فقدت خطيبتني نسيت نفسي . قتلت ؟ قبلتة .. هناك ، نثرتها مثل الرمل في البحر . انني نذرت نفسي لغير هذا ! ما هي النتيجة ؟ قل لي يا صلاح ما هي النتيجة ؟

العينان البينتان والبسمة المشرقة وانفلاش ضوء القنبلة فسي عتمة الليل ، وصرخة تضيق وسط الهدير والانفجارات . استنفائة تعقبها ((البقية في عمرك)) .. دوار . حريق يأتي على أشياء كثيرة كانت قائمة . وجه صلاح يتطاول ، وجه حبيبتني المتناثرة يتمزق .. اشلاء في الكون كله تتجمع . السمراء انفست مع شاب في قبيلة طويلة . ضحكات من خلف البار . ((جيرك)) يأتي من زوايا لم أعد أقدر على تمييزها . صخب يلججه صوت صلاح :

– أحب حديثك يا أبا النور .

– أجل تحب حديثي . هو تسرية عنك . كلام نيابة عنك . أنا أعلم ما في أعماقك . نحلم أن تعود الى المنزل في عمان وتقبل طفلك الصغيرة ، ونحتضن زوجتك من شوق . ما هي النتيجة ؟ تمنح أيتها الرجل . ابتعد من الطريق . سيحجر فلسطين غيرك . لماذا ؟ وأنا ؟ أنيسيموني ؟ أنا أيضا فلسطيني . أنا أعشقها من جوارحي . احترق في اليوم مائة مرة ، وأجوع في شوارع المدن الكبرى والصغرى على حد سواء . يتكشف لحم شقيقتي أمام الاعيين النهمه . أهرب من المخيم ، تطول لحييتي ، أرتدي الموه ، أحمل الكلاشن ، ادخل في الليل . شعلة نار . أوزع فتائل النهار . أنت لا تفعل شيئا . طز ! أنت حجر عشرة . مرفوض . تمنح . أو اذهب الى السجن . أنا أصرخ الآن : هو ذاك اللعين الذي يحتكر الخبز والدم ، ليتنح . أبصق من أعماقي الفحيح المسموم في كبده . أنا أست عثرة . أفهمت يا صلاح !!

الحركة ((٢)) :

في الهواء وخزة باردة .. رأس دبوس . ربما لم نبتعد كثيرا ، بعد ، عن القبو . داهمتنا روائح كريهة ، وصدمت عيني كومات قمامة في كل أنحاء الشارع . الهدوء مشوب بأصوات ممتزجة ، مختلطة غير مفهومة . هي خليط من الصراخ ، والموسيقى ، والجيرك ، وفيروز ، والعيول اللاطء في الزوايا المجهولة . لحظات وتفتير كل شيء . وقع الخطوات في الليل ، والصخب الصامت فسي ((فينيقيا)) . أتشوارع المنحدرة السهلة والعربات الجائمة على جانبي الشارع . هي الأخرى ابتدأت تنام . لكن كثيرا منها ما زال يخدش هدأة النفس السابحة في أرضة بيروت . أحس بصلاص أكثر من أي وقت مضى . كالمهس الدافئ أشعر به الى جانبي . يلتصق بالشارع ، سفلى حذائه بالزفت . تتلاشى الأشياء .. أو هي تستحيل جميعا لتكون صورة واحدة . صورة أراها في منعطفات الشارع ذي الانوار المتلاثلة . في عيون بعض الناس الذين يخبون في بيروت آخر الليل . صورة كبيرة ، لان فيها رجلا وامرأة ، رجلا مكتمل الرجولة ، وامرأة مكتملة الانوثة . لا شيء الاهما .. والضوء الخافت الهادى

الذي لا يبصرانه . رغبة ملحاح ، يزيدنا النسيم البارد وسكون الليل
وثورة النفس ناجحاً . رغبة هي ربما تسيطر على حركات صلاح كذلك .
انها تسيطر على سيطرة تامة غاشمة برغم الخدر اللذيذ الذي بدأ
يصب جذورا عميقة في بدني . كم من الكؤوس كرتت ؟ الحركات الآن
من وحي السيطرة الطاغية لآثر المشروب . أضحك نخاطرة وأقولها
لصلاح فوراً .

- صلاح ! ساكنب في وصيتي ما يلي : أن كنت أحببتي ، وان
أردت لي أراحة في الموت .. صب على فبري الوبسكي كلما زرتني .
ان ذلك يربطني .

يردد الشارع أضواء صخب ضحكنا . الحرارة تنسرب السى
الجسد . أحس بتشنج يدي . حركات الاعين تتفل . حركات الداخل
مهموزة وبهمزني بدورها لتوتب صوب امرأة . تلك الصورة من جديد .
لكي تنطفئ التيران فلا بد من ظمأ طويل .. ظمأ أختزنه الرجل ، الذي
هو أنا ، في أعماقه طوال سني عمره ، وظمأ أختزنه المرأة ، المجهولة
المعلومة ، طوال سني عمرها . نحن في أترتونه ؟ شيء ما جذبني ،
نشأ أمعاني . شيء ضرب رأسي بعنف . أضواء الهدير . تحركات
العربات . لا بد ان انحرىق هائل ، أجراس ، رنين .
- صلاح . هيا الى المكان الذي وعسدتني به . أريد ان أهرب
من هنا .

ترنج ، فجة ، أمامي هيكل . حاولت الابتعاد عنه . أحسست
بأنني انصمت بشيء صلب . ضمني ، شيء ، فاعلمت عيني .
- أنت نهزت يا أبا النور ، يا عيب الشوم ! اربع كؤوس من
أويسكي تفعل هذا كنه برجل مثلك ؟ صحيح ! ان الهواء مثقل بزوايع
مفعول الشراب . ضحك في داخلي فار صغير ، ضحكة سافرة غامضة
ساخرة .

- لست نملأ يا صلاح . ولو كنت كذلك لما طلبت إليك أن نذهب
فورا .

- لكنك نصورت شيئاً أمامك . ان حقيقة لم يكن نمة شيء .
أصحيح هذا ؟ لقد رأيته بأب عيني . أحقا أنني تصورت وجود
الشيخ ؟ أكان مجرد خيال ؟ تصور ؟ .. اذن فما هو هذا العملاق
الهائل انقادم نحونا . بحطوات ثابتة ! الشيخ الاول لم أستطع تمييز
شيء فيه ، وهذا .. هذا ترى عينيته السوداوين مثل الجنان ..
لا .. هما عسليشان . وجه هائل . عريض جداً . ها هو ذا يتشسوه
اذ هو يقترب . انه أشوه . يا الهي !
- أنظر يا صلاح .

شدني شيء غاضب من ذراعي . وأخطبوط غير مرئي يكبلني .
انخطب في مكاني . لا أحرك . العملاق الهائل المرعب ، بعد أن حجب
الضياء ، دنا منا . شفتاه تضخمتا . أنقدت عيناه . بدأ يضحك .
قصف رعد ، وفي السماء لم يكن نمة سحب . يداه طويلتان كان له
أنيابا صخرية بأسفة مثل أعمة الأرخام . نمة لون في عينيه ، يسج
كفترات اتدى العالقة على شوك الصبار الناصج . شيء يربطني .
أحس بتقل رجلي . يدور رأسي .. أحمل جبلا شاهقا على كاهلي .
أسمع صوت صلاح . هو يتحدث آني . الى العملاق المتقدم . خطوات
ويدركنا . أسنانه الصخرية الهائلة .. أظافره كالخناجر . عيناه كتلتان
كبيرتان من نار زرقاء :

- صلاح .. لنهرب من هنا .

ميزت صوت صلاح أرنهش هذه أرة حين قال :

- حسنا . أدخل ، هذه هي ذي العربية أمامك .

في شيء كبير أحشر . أنفاس ثقيلة متباطئة ، تناسب عكسيا
مع ضربات القلب الضاربة المتسارعة . كلمرة الاولى مددت يدي ، عن
عمد ، الى الناحية اليسرى . أرقدتها على صدري . ثم لم أعد أفقه
شيئا . العملاق تبخر . الهيكل كان سرايا ، يلتفت الي وجه جديد !

انتصب شعري كله لهول منظر هذا الوجه . أنفه متضخم كتلة بنفسجية
عارية . فتحته مقارنان تودن ابتلاعي ، وأرسالي الى مجهول . أدر
وجهك يا قبيح الوجه . هذه التناه الصفاء المزعومة القادمة من
أسنانك ، أصوات فادمة من المذيع . ماذا في الامر ؟ أسمع أغنية .
اضطراب . موسيقى . أصوات متنافرة مختلطة ، هي مزيج من الفرح
والالم والبكاء والنعويل والفناء والرفص . هي فرع طبول ، ناي حزين
بعيد . هي صين يصم الآذان . الأصوات هي الاخرى نشاز مثل طفل
حديث الولادة . لم أكن لأميز هذا الخليط من الأصوات .

- صلاح !

هو بخاني الوحيد ، هو صوتي الوحيد الذي أسنطيعه :

- هدى من روعك يا أبا النور !

شيء عن الطائرات . أضال ، نساء . عراة ، مزفون . يذكر
أشياء عن البناتك ، الصواريخ ، الأضواء المسرعة ، النيران ، الأضواء
في اتجاهنا تصبح كرات ناربه تسبح في سماء بيروت . بعنف صاعق
نتحرك . كانها عربان في حالة هجوم .

- صلاح ! احزر . نمة شيء غريب .

شدني من ذراعي . وجه صلاح أخفى . ظلمة مرهقة سوداء ..
سوداء .. أصابعي . لم أعد أراها . أنا أعمى . أعمى !

- صلاح . لم أعد أبصر . لا أسنطيع رؤية وجهك .

- أبو النور . أهذا يا رجل . أسمع الاحبار .

الاحبار . هزيم . قصف . رعد . شهب نار . سهام عيسون
جاحظة . محنطة . في حدفانها صورة لا تزال .. لا تزال . مخالب
مقفوفة . ناب . خنجر . نابان . دم .. دم ينزف من الايئاب . مخالب
سوداء تتجه الى وجهي . عينايا أغمضتهما . اختنق . أموت . دوار .
دوار . أصرخ . ظلام تام . أصرخ . أغيب .

الحرثة ((٢)) :

((نافس اسمك يا يمه ، على كعب أنبارودة .

وان خلص مني رصاصي لأضرب بعصاة ايدي)) .

ها ! ها ! ها !

أين أنا ؟ في أي زمان ؟ هل نحن في حزيران ؟ فانس عمياء تضرب
رأسي .

- هل تشعر بتحسن ؟

لا شك هو صوت صلاح . أين كنا عندما سمعته يقول هذا أول
مرة ؟ أذكر الآن ، برغم الصداق أتصاحب الأزم هنا ، في رأسي .
نقل أرقه ألقفون ، ستة أيام بلياليها ، دون ان أعرف طعم النوم .
والآن لحظة صحو تشقشق في دماغي . أحسست بانعماش . عادت
الاشياء ، ببطء ، تنتظم . كان ذلك بعد سماع الصوت العززين بيت
من المذيع خبر سقوط عهد . نهاية فترة طويلة كانت جبلي متعبة .

- هل تشعر بتحسن ؟

- أنت أفضل .

- قال الطبيب أن ذلك سببه الارهاق . يجب ان تنام .

- الآن .

- أجل .

كانت الشمس لاهبة . أسبح في العرق . صدادع . أصوات
حادة . أشعر أن رأسي سينفصل عن جسدي . شيء قوي يدق
الاسافين في جبيني . جبيني يقطر دما أسود ، أشعر به يفرق عيني .
تنصب الاشياء أمامي . أغمض عيني ! أفتحهما . ضباب أسود كثيف
على زجاج في صباح بارد .

- القهوة السادة خير نداء لمفعول المسكرات يا أبا النور .

- أي مسكرات ؟

والثقل يرهقني نانية . الوبلات واللفظ الصاحب والحزن يقلف

العيون. كانت الرؤوس منكسة ، ولم أر الرايات قط . رفعت الرايات ، أو هي تهزقت . كانت صرخة واحدة ثم خمد كل شيء . وسكنت الرياح . لم يبق الا حرارة الشمس . وعرق الاجساد وزوجتها ، والبيوت الملائى كالورم الخبيث . تلفظ البيوت الاهات والهالات تسور العيون .. هالات بلون البحر . تقذف البيوت الحزن وتنقي الرجال الموتى . انا كنت أحمل بندقية . في الشام انا أحمل البندقية . ستة أيام بلياليها دون أن يغمض لي جفن . الخيوط الصفراء تنقطع ويهوي المتسلق الى الفرار، الى حيث الحجارة اللدبية كتمساح نصب كميناً بفتكه الطويلتين .

– هل تشعر انك أحسن ؟

– كيف ؟ والهزيمة ؟

– يا رجل صلّ على نبيك ! أين نحن ؟

– أجل يا صلاح ، أين نحن ؟

– في بيروت يا أخي .

– لا يا صلاح ، نحن في دمشق . أود أن انزع ثيابي عن جسدي .

العليا جحيم لا يطاق . يجب أن أخرج من ثيابي . شيء اقرب من

رأسي . من وجنتي .. من شفتي . الشيء كالجحيم .

– خذ .. أشرب القهوة .. أشرب .

« وان خلص مني رصاصي لاضرب بقبضة ايدي »

ها . ها . ها !

انا لم أعد أملك حتى يدي . لا أستطيع ان احركها . ان يديّ منفصلتان عن جسدي الآن . ما هذا الصوت ؟ « هل رأى الحب سكارى .. ؟ » . يتأهب الصوت ، يثقب ألم رأسي السميك الماصف . فجأة اظلت شمس من فجوة ما في الكهف ، حزمة شعاع ذهبية . تقدمت . وقفت . تميزت أرض الكهف الرطبة . ثمة روائح غريبة . روائح شواء لحوم بشرية . روائح قدم مشرش في الكهف ربما هي جردان سمينة تكاد تخنق الانفاس . حشر جديد في هذا المكان . لا حشر . في الحشر أخال الناس لا ترى ولا تجد أنها مكانا تسير عليه . هنا حشر انفرادي .. منزلة في آخر الدنيا . هو قطب شمالي لا جاذبية له . هذه الكوة الصغيرة في المكان المجهول ثقب في قمعة الجبل الصخري . أنظر من خلالها الى الشمس . الرسل دائفة لكنها شاحبة . أتوقف مسمراً . ينبغي أن انحرك . الضوء يفشي الابصار ان كان خاطفاً وحاداً . لا بد ان ابصر . هزني شيء . الصداع ينوب تدريجياً .

لا بد ان صلاحاً يجلس الى جانبي . أين نحن ؟ ثانية ..

أين نحن ؟

– أما صحوت يا ملعون !!

هو صلاح أذن . دوار وخدر . ليل . فركت عينيّ . ضياء متوزع في أماكن بعيدة وقريبة . ظلال ليلية شاحبة . تسلفت بعض الوجوه ، وتشببت ببعض الاجساد والكراسي .. والطاولات . ارتدى بعضها أرضاً في الوحل . أخال أحداً من الناس يسقط على الأرض .. يتمرغ في الوحل وجهه . جزمة عسكرية ترص الرأس بالطين ، يرفس الرجل .. الرجل المجهول يتلعبط كالملوغ سما قاتلاً . أتقدم منه ، من العسكري السادر في رص الرأس الملتخ بالوحل في الوحل . أصرخ في وجهه . لا يسمعي . يواصل عمله . الضغط على الرأس المغمور في الوحل . الحياة حركات طائشة من رجلي الرجل .. من يديه .. صوت واه يخنقه الطين .. الأسن . أنفل . قوة ما ، جسارة ، تتحرك في داخلي . بقوة أخالها هائلة دفعت العسكري الى جانب ، ثم على أم رأسه العاسرة أضربه بجمعي . ابعده . رفعت رأس الرجل المنكفئ في الوحل . يا للهول ! الوجه الملوث الطين الموحد .. هو وجهي . العينان هما عيني . الملامح ملامحي . من رعب التفت الى الوراء .. أحاول اخفاء وجهي بأصابعي ، أغمض عينيّ بسبب لسون

أصابعي .. أسود .. أسود داكن .

لا أجد من أصرخ ، أستنجد به سوى صلاح :

– احمني يا صلاح ! انهم يمرغون أنفي في الوحل .. في الوحل ..

في الوحل ..

يفيب ، بفتة ، كل شيء .

الحركة (({)) :

كنت اجلس في « كازينو » .. في مكان ما .. نصف الميل أو بعد ذلك ، أو ربما قبل . أشرب القهوة المرة . الى جانبي صلاح . بقايا صداع . أعرف الآن انني كنت نملأ ، وانني تقيأت ، وشربت القهوة المرة مرتين ، وانني في مكان شاعري في ضواحي بيروت الجنوبية . لكن أين نحن ؟ لماذا أنا هنا ؟ ويبدأ كل شيء ينتجم من جديد .. شتات من شرر ينتجم سيكون شيئاً معدداً . سبحة أعيسد ربط حياتها . البدء ، ذلك العملاق ، النكامن في الدم . أتأمل المكان . كان صلاح يحدثنني وهو على درجة من الصحو . حكى لي كل شيء .. كل شيء .. وقال أخيراً :

– نحن هنا لانك اللبسة عروس . أنظر اني تلك الزمرة . اختر واحدة ودعنا نمضي في هدوء . اشار الى زاوية في المكان . كنت كمن نومّ مفناطيسياً . نظفت شاشة الرأس . مثل نلج في فمة القطب نزل توا . تبخر كل شيء . الحثالة الباقية هي آثار خمشات العملاق ذي المخالب الحنجرية الحادة . الرغبة المحنطة تنهض من موتها ، تشب بعنف فرون مختزن من الكبت والضغط . ففزت الوجوه من أمامي . نساء .. نساء .. نساء فقط . شفاه تختلج ، عيون تنادي .. اجساد مشرعة الابواب . نظرائي هي المهوززة وأثار الصداع عالققة . طنين فظ في أذنيّ . ابتدأ الزمن عملية استتالة مختالة . حرارة تصهر معدنا مطواعاً . لعينان الذابلتان تفتاه .. لامرأة ما في الوسط . سساقان كاليندول تتحركان تحت الطاولة . انحسر الرداء عن فخذين زنجيتين وهما ليستا كذلك . أزيح ستارة نافذتي .. أنحسول الى الأخرى . بسمة فيها دعوة . صدر ناهد . أخاله يهتز ولا يليسن تحت ضغط الكفين . الشعر أسود ، أو هو انقل الذي رسمه أمامي على شكل جواد أدهم .

– لقد تم الاختيار .

– من هي ؟

– أنشي الوسط يا صلاح .

– حسناً تفعل يا ابا النور . أفرغ سمك فوراً ولنغادر ..

التوى في أحشائي شيء . شعرت بألم صاعق مفاجيء . مدت يدي أود أن أقبض على الألم لكنه زال كما جاء . ارتسمت أمامي صورة . ذلك النداء المجهول المكان ، الآتي من كل مكان ، القوي ، الجسور الذي لا يقاوم ينهض .

– الى أين ؟ اصبر يا رجل .

عدت اجلس . قام صلاح وسار نحوهم . وميض زار عينيها . قرأت سطور ابتسامة عريضة درجت على شفثيها ، حتى ان صدرها اهتز قبل أن تستوي واقفة . لم تصافحه . تحدثنا هنيهة . رأيتها ترمي بنظراتها نحوي . شيء جذبني . حبال تنتشل الفريق . نهضت . انجبت اليها . تخاذل وجل أطل يثقل خطواتي ، لكنني تجاهلته . غزني صلاح وعاد الى مجلسه . احتويت المكان بنظرة . رجلان في زاوية . النذل يقف قريباً منهما . نذل آخر كربه المنظر مترهل كخنزير مدلل يسير متباطئاً في اتجاه طاولة عامرة . ثلاث ساء في زاوية تحت شجرة يلعبن الورق ويدخن . أشعر بحاجة الى لفافة . أيقظني صوتها القادم من حلم :

– اتبعني يا حبيبي !

شهدت . سرت خلفها . الردفان يهتران . باب خشبي في زاوية معتمة .
- تفضل .

دخلت . طاولة خشبية عتيقة . امامها كرسي خشبي كالمسند دون ظهر . نظرت اليّ . من خلل الظلال كانت عيناها كرتين من زفت تحاولان ان تلتصقا دون جدوى . كالصوت المخوق اثناء كابوس قاتل :
- ااضيء المكان ؟
- اجل .

فعلت . خفقان مفاجيء في القلب . وثبت صورة العسكري ذي الجزمة السوداء اللطخة . بهدوء وقفت على الكرسي . ان تحت جسدها . ركزت جذعها على الطاولة ، صرت تحتها . خلت انها ستتهار على انفور . نظرت الى الانثى . كومة اللحم المهروس امامي . ضربت بسوف ناري على جيبيني . دوار . يداي مستقلتان . نزل السروال على الارض . تكوم عند قدمي .
- ما بك ؟ ألم تم مع امرأة من قبل ؟

سوط جهنمي آخر . لكنه الآن ضربي على عينيّ . انقذح امامي شيء صلب ، نظائر الشرر . أحاول ان أبسم من قلب رصاص الألم المتحجر في ظلمة قلبي . رأيت مرة اخرى الانثى في المرأة المنسدحة امامي .. كاتنا في قاعة تشريح . و .. روائح الموت ! هوع ! تتجمع الاشياء في حلقي . البلعوم مر . الجفاف يلبس شفتي . شيء يكبل الرؤية . شفاه مطلية بالدم . عيون كالكهوف المنسية الا من وحوش البر الكاسرة . جردان الطاعون الاسود .. السمينة . شحوم تتدلى امامي . شيء كالفرغ يفر فاه يحاول ابتلاعي . صوتها سيّاط تلتف حول عنقي انهزبل . حبال .. الآلاف منها مثل عنكب أسطورية تبتلع المدينة ، تلتف حول عنقي ، حول وسطي ، يداي هما الطليقتان . امتدنا الى الانثى فيها . تفوح روائح الموت .

- تحرك يا رجل .

افعى باردة قبضت على الرجل فيّ . مات كل شيء قبل اللدغة . اتجشأ . أنفياً . أخرج السم من فمي . مر .. هو السم ، علقم زعاف . غشاوة تقطي المكان .
- اطفئي النور .

نفل في لمح البصر . تعود . كان فرص الزمن ركض برهة دون ان أشعر به .. ثم تسهر . كل شيء تجمد هنا . الدم في عروقي . الافعى الباردة القابضة على الحياة المسترجلة فيّ . العينان مصلوبتان على لوحة زمن توقفت على العام (٦٥٦) هجري . هولوكو .. بغداد . الفرات الازرق . دجلة الاحمر .. الارجواني .. الخيول تهتك ستر البيوت . الرجال ذوو السيوف الفمسة بالدم يدوسون نهود نساء بغداد . الصراخ في كل مكان ، نيران تتأجج تأتي على المساجد ، البيوت ، المستنصرية ، الكتب ، بغداد كلها . ثم يتقدم هولوكو ، يتقدم وشارباه الطويلان يرفضان ، في يده رمح وفي الأخرى الحسام العريض يقطر دما هجيناً . يتقدم مني ، انا في المخدع مع زوجتي ، أمي في صدر البيت تجلس ضاحكة ، فجأة ينطفئ كل شيء حتى ضحكنا كقنديل بيننا في ليلة سباط النافس . يمسكني من ذراعي ويصرخ :

- بالجرم المشهود !

تخرج حدقتنا عينيّ من المحجرين . أنظر الى الوراء . العسكري ذاته .. المسامر .. الذرك .

- بالجرم المشهود !

اسمع صرخة . كتلة لحم مترهل تقفز من امامي . صرير الخشب نواح . ثم يقبض عليها درك هولوكو . فتحت عينيّ جيداً . حركتهما .

ضربت رأسي بيدي . بين الوجوه كان وجه أمي ، لوته السخام المزوج بالدم ، بالدمع . وتسقط على الارض عارية ، تلمع في عيون الجنود رغبة . اللحم الضامر المكشوف ، واللحم الاسود ذو الروائح القاتلة . دوار . قيح . صديد يملأ صدري ومعدي وانفي وفمي .. أصرخ :

- اماه ! أمن هذه القذارة خرجت ؟ تعالي وانظري الى ابنتك . انه يعود الى الرحم .. الرحم الذي جاء منه . قدم من رحم ظهورها هو ذا يعود الى القذارة . رائحة لا يمكن لعطور الشرق كلها ان تطهرها .

- تقدم أيها الجبان .

- أود أن أعانق جيبيني . اطلقوني . تلك هي . الكلاشن هناك . الزيتون في الشمال . الكلاشن . آكنت نجرؤ أيها الوقح الجبان على فعل هذا لو كنت أحمل الكلاشن ؟ نو كنت في غير هذا اليوم ؟ اطلقوني . لم أفعل شيئاً . ابتعد يا هولوكو .
صرخ أحدهم :

- ثمل ؟

كانت تهرف ضاحكة :

- حقاً لم يفعل شيئاً . يا عيني عليه . لم يذق طعم امرأة بعد . كانت أمي تنهض ، تطل من بين الرؤوس المتحلقة حولي . تصرخ وهي تقذ ثوبها عن صدرها : تكشف عن مصدري لبني الجافين ، ثم تسقط أرضاً دون حراك . أجن .
- اتركوني . اتركوني . اتركوني !
لكن حديداً يصفدني ثم تتناشني أياد صلبة وسط قمقمعة الاسلحة .

نواف أبو الهيجاء

كتب عقائدية وفكرية

من منشورات دار الآداب

الثقافة والثورة	محمود امين العالم
ماركيوز او فلسفة الطريق المسدود	محمود امين العالم
ادب المقاومة في فلسطين المحتلة	غان كنفاني
هيا الى الثورة	جيري روبين
النشاط الجنسي وصراع الطبقات	رايموت رايش
الوجه الاخر لامريكا	ميكائيل هارنفتون
حرب المقاومة الشعبية	الجنرال جياب
قصة المقاومة الفيتنامية	الجنرال جياب
الكفاح المسلح	دوغلاس هايد
ثورة في الثورة	ريجي دوبريه
دفاعاً عن الثورة	ريجي دوبريه
القوة السوداء	ستوكلي كارمايكل
الوحدة العربية آتية	ارنولد توينبي
التحدي الصهيوني	جاك دومان - ماري لوروا
جمال عبدالناصر من حصار الفالوجة	» »
الارهابيون والفدائيون	رولان غوشيه
اقتراح دولة فلسطين	احمد بهاء الدين
الكواكبي المفكر الثائر	نوربير تابيرو
عاجلاً أو آجلاً ستزول اسرائيل	ترجمة ريمون نشاطي

دار الآداب ص ب ٤١٢٣ بيروت